# حـــوار الحضـــارات في محك العولمة

**البروفيسور نور الدين طوالبي الثعالبي**

***الأمين العام للجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو – ألكسو – إيسسكو)***
***رئيس سابق لجامعة الجزائر.***

***ملخص :***

*إن موضـوع المقالة التالية يلخص جزئيا عنوان هذا العدد من المجلة. يُقترح فيها تحليلا لوضـع مبدأ نظري مثيـر للجدل ألا وهو حـوار الثقافات. رغم ترادف النـداءات على الصعيد الدولي لتكريس هذا المبدأ، إلا أن الواقع الصعب للعلاقات الثقافية في عالم اليوم يثير الشك حـول فعاليتـه. ذلك أن التخوّف مـن الإسلام السائد فـي العالم الغربي يعبّر عـن آليات عدم تسامح ورفض مبدئي للاختلاف الثقافي والديني، ويغذي في المقابل لدى الطرف الآخر ردود فعـل تتمثل في الانغـلاق الذاتي. كل ذلك يقلّل لا محالة من جدية الحـوار بين الثقافات ويهدد بالتالي مستقبل السلم في العالم. لقد أثبت التاريخ المعاصر أن العنف الطائفي أو الديني يمثل في أكثر الأحيان ردود فعل دفاعية من طرف الدول الفقيرة ضحية عزل اقتصادي وتكنولوجي، أمام هيمنة القوى الكبرى وسيطرتهم الثقافية.*

***الكلمات الرئيسية :***

العولمة – العزل – الثقافة – الهوية - التطور

لفتـح النقاش حـول أهمية التنـوع الثقافي أمام الإشـكال الحاسم الذي تطرحـه العولمة، تمر ببالي الجملة المشهورة التي نطق بها ماهاتما غاندي سنـة 1921، والـذي كان أحـد رواد السلم في العالم: "لا أريـد أن يكون بيتي محفوفا بالجدران ونوافذي محصّنة. بل أريد أن تهبّ ثقافات البلدان خلال بيتي بكل حرية. لكنني أرفض أن تجرفني إحداها".

## العولمة: من الحلم إلى التدليس

أمـا اليوم فقد ظهر منظـور معاصر ألا وهو العولمة. يبـدو في أول وهلة أنه ذو طابع اقتصادي محض إلا أن الأمر جد مختلف؛ حيث أن للعولمة آثار مدمّـرة للحريات والهويات الثقافيـة بسبب عوامل الانجراف التي تتميز بها كالمد العالمـي لمختلف الأفكار والأشكال الثقافيـة الجديدة التي يرافقها، إضافة إلى عولمة الاقتصاد التي هي أيضا – في حدود متباينة – تمثل خطرا حقيقيا على الثقافات الوطنية الأصلية.

يجب في نفس الوقت الاعتراف بأن «أمركة العالم»– مستخدما مصطلح ريجيس دوبراي Régis Debray – لم يعد «حلما»، بل إكراها رائعا يُفرض على المتأخرين الذين يجدون الصعوبـات لمتابعته أمام مختلف التحديات التي تواجههم.

فمن وراء حجة نشر معالم الديمقراطية في البلدان الإسلامية كما تدعي ذلك في أغلب الأحيان القوى الكبرى، يجب العلم أن الأمر الذي يُفرض على هـذه البلدان يتركنـا حائرين: إنها مأمورة بالتحـول - انطلاقا من الشيء القليل الذي يميزها - إلى مجتمعات عقلانية ذرائعية خاضعة للدين الوحيد الذي يهمّ : الأداء الاقتصادي !

إن المختصين فـي ميدان التنمية يطلقون على هذه الجماعات الجديدة البـاردة والمنعدمة مـن الإنسانية مصطلـح «رأس الماليـة جد-السريعة». بهـذه التسمية، يشير هؤلاء إلى هذه العولمـة الشرسة التي ستولد عددا من الخاسرين أكبر من الفائزين.

إضافـة إلـى ذلك، يجب الشعـور والاستعـداد لما يلي : في هـذا العالم الجديد الأقل فأقل رحمة والأكثر فأكثر طمعا، إن الأمم الضعيفة والمترددة التـي لـم تؤد واجبهـا للاستعداد والتبصـر ستُعزل لا محالة مـن المنافسة الدوليـة، حيث أنها أهملت أن تأخذ بعين الاعتبـار القيم التي من شأنها أن تجعلها تتألف مع المعاصـرة الفكرية والاجتماعية. وفي اليوم الذي سنصل فيـه إلى تلك الوضعية، لن يتمكـن أي مؤتمر مهما كان - مكسيكو أو غيره - من تغيير شيء للفقر والعزلة التي تهدد البلدان الفقيرة.

إن الشعـور بالاستضعـاف والظلـم مـن جـراء الحرمان الـذي تفرضه المستلزمـات الاقتصادية والثقافية لعولمة الاقتصـاد العالمي تشكل – ولا ريب – إحدى أسباب «الانغلاق الثقافي» الذي تلجأ إليه عدد من المجتمعات العربية والإسلامية المخيبة، فهي تقاوم بذلك القوى الكبرى التي تحاول أن تفرض عليها نموذجا ثقافيا مخالفا لتقاليدها.

يبيّـن التاريخ المعاصر جيدا أن العنـف الطائفي أو الديني، أو حتى هذه «الهويـات القاتلـة» كمـا يسميها أمين معلـوف (1998)، هي فـي أول شأنها بمثابة ردود فعل ثقافية لبلدان الجنوب التي تمثل في الحقيقة ضحية العزل الاقتصادي والتكنولوجيوكذا الهيمنة الثقافية الظالمة لبلدان الشمال.

إضافة إلى ذلك، من المستعجل اليوم الاعتراف بأن مسألة التقسيم العادل للثروات تمثّل إحدى العوامل الأساسية لحل الصراعات القائمة على المستوى العالمي، وكذا الوسيلة اللائقة لمن يريد فعلا العمل على ضمان السلم في العالم.

يجب ألا يؤدي ذلك التقسيم إلى العزل أو السيطرة، بل إلى الإرادة في المشاركة : المشاركة في نفس الكون للحفاظ عليه وتركه كميراث للأجيال اللاحقة (ذلك نفسه منظور التنمية المستدامة)، تبادل العلوم والمعارف ، صنع تكنولوجيات جديدة ومكتسبات في العلم... كل ذلك باحترام الاختلافات الثقافية والدينية.

في هذا السياق، إن الإعلان العالمي لليونسكو بشأن التنوع الثقافي (2 نوفمبر 2001)، قد اعترف أن الخاصيات الثقافية تمثل إحدى تحديات الألفية الجديدة. فكما يشرح ذلك نص اليونسكو، ليس من شأن احترام الاختلاف الثقافي والديني أن يزيل فقط صراع الحضارات، بل إنه بمثابة الحصن الحصين ضد العنف الناجم عن الآثار السلبية للعولمة الاقتصادية التي تجعل – كما يعلم الجميع ذلك – «السلعة في محور العالم».

انطلاقا من هنا، يُعتبر تشجيع التنوع الثقافي بمثابة عامل للتسامح الفكري. إذ أنه يفرض فكرة الحوار المستمر بين الثقافات والحضارات، بين رجال ينتمون إلى نفس العالم ويعلمون أنهم – مهما كانت اتجاهاتهم الدينية – سيأتي اليوم الذي يتبنون فيه هاجس تيلار دي شاردان (1963) Telhard De Chardin الذي يقول «انطلاقا من أطراف متقابلة لنفس الجبل، سيلتقي الرجال الذين يتسلقونه، لا محالة في نفس القمة».

يجب أن نعلم بأن هذا الإعلان العام لليونسكو الذي تم اعتماده بالإجماع في الدورة 31 للمؤتمر العام لليونسكو غداة أحداث 1 سبتمبر 2001 ، قد أعطى الدول فرصة ثمينة لتأكيد قناعتهم أن الحوار بين الثقافات يشكل

أحسن ضامن من أجل السلم في العالم. فعلا، إن هذا الإعلان يرفض أطروحة النزاعات الحتمية بين الثقافات والحضارات، وقد ذهب إلى أبعد من ذلك. وهو أمر جديد. حين رفع مفهوم التنوع الثقافي إلى مرتبة «تراث مشترك للبشرية».

وهذا ما جعل المدير العام الأسبق لليونسكو (2006) يقول إن تنفيذ الفلسفة التي تحملها هذه التوصية من شأنها، ليس فقط، ترقية الاحترام، على مستوى العالم، للاختلافات الثقافية والدينية، بل أيضا، المساهمة في «أنسنة العولمة».

خيبة العالم

أما الآن، يجب علينا الانتقال إلى منطق أقل نظرية وأكثر اتصالا بواقع العلاقات بين شمال وجنوب الكرة الأرضية. رغم كونها علاقات مضطربة منذ قديم العهد، إلا أنها تتفاقم اليوم فجأة تحت تأثير عنف عالمي من نوع جديد يعتمد على الاختلافات الثقافية والدينية ليعبّر عن نفسه ويزداد شدة.

يعلم الجميع أن القراءة الغربية مليئة بالأمثلة التي تقلّل من قيمة مسألة التنوع الثقافي. رغم أن الغرب ينكر ذلك في أغلب الأحيان، إلا أن التاريخ يشهد بميله الطبيعي إلى استخدام الأفكار الطائفية لتوسيع سلطته الفعلية والرمزية إلى غيره من العالم. رغم أن العالم الغربي يدّعي غالبا استعداده للحفاظ على علاقات صداقة وتفاهم مع العالم العربي-الإسلامي. إلا أن النظرة التي يلقيها على الثقافة والدين الإسلامي تبقى مصبوغة بمجموعة من الأفكار الاجتماعية المسبقة، إضافة إلى مستلزماته السياسية والاقتصادية التي من شأنها أن تسيء إلى توازن العلاقات.

نعلم اليوم لماذا كانت حوادث 11 سبتمبر 2001 سببا لبداية حملة إعلامية حقيقية تهدف إلى تهميش الثقافة والحضارة الإسلامية.

يجب الاعتراف من جهة أخرى أنه بعد هذه الكارثة التي أنكرت بالإجماع، حاول جزء كبير من مثقفي الغرب أن يطمئنوا الجو الدولي المضطرب الذي نجـم عنها؛ إذ رفض بعضهـم المعادلة التي تجعل من الإسلام مجموعة من أحـكام العنف السياسـي والإرهاب الدولـي. كذلك، دعا الكثيـر منهم إلى تفـادي هذا التهميش المبالغ فيه حتى أنهم تطرقوا للجدال لإظهار الصورة الحقيقة للإسلام قبل أن يتفاقم الضرر.

رغـم أن هـذا الجهد مستحـب، إلا أنه يبقى في كل حـال غير كاف لحل أزمـة الثقـة تجاه البلدان الإسلاميـة التي يغذيها أمـران يساهمان في هذه الوضعية :

❶ لقـد بلغت خيبة العالم حدودا مأسوية لدى أجيال بأكملها من الشباب العربـي والإسلامي، أصبـح التعصب في القيم الثقافيـة التقليدية في كثير مـن الحالات يهف إلى مواجهة القلق الوجداني الذي يمس البلدان الفقيرة. فـي عالم أكثر فأكثر اضطرابـا وذو مستقبل غير واضـح المعالم، قد يمثل الإسلام المتشدد في تصور هؤلاء الحل الملائم لمواجهة مشاكل العالم.

❷ دون الحاجـة إلى التذكير بذلك، الجميع علـى دراية بالطابع العالمي للنص القرآني، كما أن فلسفة حقوق الإنسان تحتل مكانة مركزية فيه. إضافة إلـى ذلك، إن التسامح مع التنوع الثقافي والدينـي يعتبر في الإسلام واجبا دينيـا. وعليه، نستطيع القول إن العالم الإسلامي مستعد بصفة طبيعية إلى ثقافة السلم كما هي متجسدة اليوم في النصوص القانونية للأمم المتحدة. نشيـر فـي هذا السيـاق أن علماء صوفيـة الإسلام أمثال الشيـخ ابن عربي وابـن رشد، وأقرب منّا الشيخ خالد بن تونس الـذي تكرم بإثراء هذا العدد بمقالـة أصيلة يذكرنا فيها أنّ الإسلام في أصله دين سلم وسلام، كلّ هؤلاء المفكرين أثبتوا قبل صـدور النصوص الدولية الحديثة، أن الإسلام نموذج في الدفاع عن حقوق الإنسان واحترام الاختلافات الثقافية والدينية..

لكـن وفي نفـس الوقت، بمجـرد ما يبدأ هـذا المنظـور المعاصر يغادر المجـال النظـري أو الفلسفي ليثبت فـي المجتمع المدنـي الإسلامي، نجد عوامل «عارضة» تظهر فجأة لتوقف مسيرته:

❶ العامـل الأول، كمـا رأينـا ذلـك من قبـل، يتعلق بالمجـال الرمزي. إنـه بمثابـة رد فعل أمـام الطابع الآمر للعولمـة التي تولّد لـدى الرأي العام العربي-الإسلامـي الشعـور بخيبـة ذات حديـن: مـن جهـة يوجـد الضيق الطبيعـي الناجم عن التحديات الاقتصادية المحضة، نضف إلى ذلك إنكار تلقائي شكلي للقيم الغربية التـي تعتبرها المجتمعات الإسلامية قوة هيمنة ثقافية.

❷ أمـا العامل الثانـي فهو يبقى اجتماعيا. إنه يتجلـى في تلك الحركات الرامية إلى التضامن الاجتماعي كلما طرأ عارض على العلاقات بين الشمال والجنـوب فيـه اعتـداء على المعالـم الحضاريـة والدينية للعالـم العربي-الإسلامـي. إن حـالات العنف التي نجمـت من جراء الصـور الكاريكاتورية المعتديـة علـى النبي ﷺ توضح جيـدا الذريعة التي تعطـى لحركات إثبات الهويـة بشـكل مبالغ فيـه. إلا أن الأخطر مـن ذلك هو استفـزاز المسلمين فـي العالم بأسره بعد إخراج «مغالطـة سينمائية» بعنوان «براءة المسلمين» (سبتمبـر 2012) تنشر في واقـع الأمر رسالة تسيء إلـى شخصية الرسول وإلى الإسلام. يبرهن هذا الاستفزاز مرة أخرى أن العنف التدنيسي يسجل نزعة غربية تنسب كإسقاط عصابي إلى الثقافات والأديان الأخرى.

إن الاعتـداء على القيمة الثقافية يولّد الانغـلاق في الخاصيات الثقافية والدينية وظهور التعصـب الثقافي الذي يعمل في آخر المطاف على التقليل من التفاعل الثقافي مع النموذج الغربي.

في هذا السياق الخاصـ، لا نتعجب حين نلاحظ الاعتراضات الصادرة عن الرأي العام العربي والإسلامي التي تعمل على تهميش القيم الغربية. إن

هـذا الإنكار – نلاحظ جيدا ذلك – يضاعف مـن أسباب عدم التفاهم بين الحضارات الإسلامية واليهودية–النصرانية.

في هذا السياق، يوجد خطر آخر: يبدو أن القيم الأشد ارتباط بالحضارة الغربيـة، نعني ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسـان، غير قادرة على الدفاع عن نفسها أمام هذا التهميش، ذلك الأمر الذي يجعل الديمقراطيات النامية تخشى ظهور المزيد من الفواصل بين الغرب والشرق.

أذكـر أنه مـن المستحيل تصور العولمـة دون حرية الجميـع في اختيار الاتجاه الثقافي، كما أن التنوع الثقافي – شئنا أم أبينا ذلك – جزء لا يتجزأ مـن الواقع التاريخي لعالم لازال متنوعا. وقبـل اختتام هذا التأمل، أريد أن أثير نقطتين:

– تتمثـل الأولى فـي الإشكالية العامـة لحقوق الإنسان حيـث بإمكان كل واحـد أن يلاحظ ما يتعرض له هذا المجال من تدهور بشكل منتظم. أليس صحيحا أنه باسم هذه القيمة السامية فإن بعض العبارات المبتكرة من نوع جديـد، مثل: «الواجب والحق في التدخـل» و«إخلال السيادة» وحتى ما ظهر حديثـا «الحكم المفلس» – لاحظِوا طابع هـذه الكلمة المأثورة– قد ظهرت فـي المعجم اللغوي «المنقح والمزيد» على مـا يبدو للقانون الدولي من أجل تبريـر الإعتداء على سيادة الـدول؟ السؤال الذي يتبـادر إلى الأذهان هو : ضمـن ظروف التدخل هـذه، والمرفوضة جملة وتفصيـلا ، في شؤون الدول التـي يفترض أن لهـا سيادة، هل يمكـن ادعاء محاربة التوظيـف السياسي للديـن، في حين، تغض المجموعة الدولية الطرف عن قضية لا تقل خطورة وتتمثل في الحق الإنسانـي؟ إن هذه المغالطة الأولى في العلاقات المرتبكة بيـن الشمـال والجنوب، صارخة ولا يمكن أن تخفى علـى أحد. إن أقل تأثير لذلـك هو أنها تقضي على ثقافة الديمقراطيـة وحقوق الإنسان عند جمهور المسلميـن الذين يؤوّلون هـذه التشويهات الدلالية على أنهـا أساسا، إثبات لنزعة الخصام وهيمنة الثقافة الغربية.

إنه الموضوع الذي تناولتُه في المداخلة التي قمت بها على منبر اليونسكو سنة 2007، بمناسبة جلسة عامة للسفراء المجتمعين لتخليد الذكرى الخمسين لحقوق الإنسان، حيث ارتأيت أنه من واجبي دعوة المشاركين إلى الاحتراز من محاولات التوظيف السياسي لمسألة حقوق الإنسان مادام هذا التوظيف يحمل كل الأخطار على مستقبل السلم في العالم.

– وبدوره، فإن الإسلام كعقيدة دينية وفلسفية للكائن. لا يجب أن يخجل من الاستعمال السياسي الذي قد يتعرض له هنا وهناك وأقل من ذلك فيما يخص أعمال العنف السياسي المرتكبة باسمه. ومن وجهة النظر هذه فإن القضية قد بلغت الآذان منذ زمن بعيد، ومعظم المسلمين مقتنعون بطبيعتها الإنسانية ولا يشعرون بأي ذنب ثقافي أمام انزلاقات هؤلاء «الرسل الجدد لأزمنتنا البائسة» (هودرلين Hölderlin) الذين، من خلال أفعالهم، يدنسون كمال النص القرآني بتقديمه إلى نظر الأجنبي على نحو صنافة من عدم التسامح الثقافي والعنف الديني. ولاشك أنه كرد فعل تجاه هذا الجزع من التحريف المذهبي حيث صار ممثلوا المنظمات التربوية والثقافية في العالم العربي والإسلامي يعتقدون، منذ أحداث 11 سبتمبر 2001، أنهم وجدوا الحل بالاستعمال المفرط لموضوع حوار الثقافات ليجعلوا منه «وسيلة للمتاجرة».

فهؤلاء السادة المسؤولون عن المعرفة، العاجزون عن قياس مدى إفلاس المهام التربوية للمؤسسات التي يشرفون عليها قياسا سليما، يحاولون اليوم تدارك ذلك من خلال ما يرددونه باستمرار من حوار بين الأديان. والأجدر بهؤلاء أن يضعوا حدا لتخوفاتهم وينظروا جيدا إلى المشاكل الحقيقية التي تواجهها مجتمعاتهم: أي المشاكل الخاصة بضعف النماذج التربوية الاجتماعية ومشاكل ضياع الشباب المسلم بسبب فقدان الأمل، حيث تستهويهم الرؤية المتمثلة في اليأس من المستقبل.

وقد حق لفريدريك أنجلز Frédérich Engels حين قال إنه رغم أن الرجال يصنعون التاريخ «فإنهم لا يعرفون أبدا التاريخ الذي يصنعون».

## من نفس المؤلف :

- *الختان، جرح نرجسي أو ترقية اجتماعية؟* الجزائر، الشركة الوطنية للطباعة والنشر، 1975.

- *الدين والطقوس والتغيرات*، مؤسسة عويدات، 1988

- *المقدس المطلسم*، الجزائر، الشركة الوطنية للطباعة والنشر، 1984.

-*المدرسة الايديولوجيا وحقوق الانسان : النموذج الجزائري*، الجزائر، منشورات القصبة، 1998 و 2004.

- *الهوية في المغرب : الحيرة*، الجزائر/ منشورات القصبة، 2000 و2001.

- *إصلاح المنظومة التربوية في الجزائر: تحديات مجتمع متغير*، كتاب جماعي، وزارة التربية الوطنية، 2005.